"الّي برخص تجارته بتبور "

يتحدث الناس كثيرًا عن التواضع والبساطة في التعامل بين الناس وقد قيل الكثير في هذا المجال، حيث قال جعفر الصادق: "أحب الخلق إلى الله المتواضعون"، أما العماد الأصبهاني فقد قال: "أَلِن جانبك لقومك يحبّوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم يدك يطيعوك".

بالحقيقة هذه القضيّة اشغلتني وما زالت تشغل ذهني، فالسؤال الذي يراودني كثيرًا: هل أنا متواضع؟ ما معنى التواضع؟ حقًا ما معنى ذلك؟ ماذا يجب أن أفعل حتى يعتبرني الناس متواضعًا؟ هل معناه أن تتحدث مع الناس باحترام أو هل معناه أن تجاملهم أو تتهاون معهم؟ هل يوجد امتحان للتواضع؟ كيف يُقاس التواضع؟ هل هناك سلم يختبر التواضع كسلم ريختر لقياس الهزّات الأرضيّة مثلًا؟ هل عليك أن تكون مسؤولًا أولًا حتى تتواضع؟ ماذا إذا كنت انسانًا بسيطًا أو عاملًا بسيطًا، هل تكون متواضعًا أو كما يُقال "على البركة"؟

حدثني صديقٌ لي يعمل في مجال التربية والتعليم حول هذا الموضوع حيث قال: "منذ سنوات قليلة حصلت على ترقية في عملي وأصبحت مسؤولًا. في

الحقيقة أنني قد تفاجأت من كمية رسائل التهنئة التي وصلتني من المعارف والأصدقاء، ولكن الأدهى من ذلك كانت كمية الرسائل التي وصلتني من أشخاص لا أعرفهم ولا توجد بيني وبينهم أي علاقة تُذكر. طبعًا أوعزت ذلك أنه ربّما يكون الناس مسرورين لتعييني في هذا المنصب وأني أملك شعبيّة كبيرة بين الناس، بل يمكن القول إنني كُنت مسرورًا بذلك من منطلق المثل الذي كانت والدتي، رحمها الله، تكرره دائمًا: "صاحب المِسْعَد تِسْعَد". استمر صديقي في حديثه قائلًا: نتيجة هذا التغيير المفاجئ في حياتي، قررت وبعد أن أصبحت مسؤولًا يسعى الناس إلى التقرّب منه أن أكون متواضعًا، وذلك بعد إلحاح شديد من عائلتي واصدقائي الذين اتهموني بالغرور والتعالي حسب رأيهم. طبعًا أنا لم أرَ الأمر كذلك، إذ رأيت أنّ الابتعاد عن الناس واعتزالهم هي الطريقة المُثلى لِنأمن شرّهم فكلما اختلطت أكثر فإنك تسمح لهم بالتدخّل بحياتك أكثر وهذا شيء لا أحبّذه في حياتي الشخصيّة".

واستمر صديقي قائلًا: "اعترف أنني انصعت للأمر مرغمًا وعلى مضض، فمن الصعب أن يتغير الإنسان في هذه المرحلة العمرية وبعد هذه السنوات الطويلة من إتّباع أنماط من العمل والحياة حيث أنّ الطبع يغلب التطبع، لكنّي لا أنكر أنني كنت سعيدًا بهذه الحلّة الجديدة وهذه الشخصيّة المحبّبة، وسعدت أكثر

عندما رأيت ردود الفعل عند الناس الذين رأوا شخصًا جديدًا، أقل غضبًا وحدّة في ردود الفعل. فكثرت الابتسامات وتغيّرت النفسيّة فتبنيت عادات جديدة وتغير أسلوب اللبس من الرسمي إلى اللبس المريح المتحرر وتغيرت الألوان من الألوان القاتمة إلى الألوان الأكثر زركشة والألوان الفاقعة مما زاد في تقبل الناس للشخصيّة الجديدة حيث الأريحية والمرونة".

وفجأةً تغيّرت نبرة حديث صديقي في الكلام واستمر قائلًا: "بالحقيقة أنني استمتعت بهذه الشخصية لفترة من الزمن، فبدا لي الأمر ليس بهذه الصعوبة التي كنت أظن. لكن التساؤل ما زال يراودني هل هذه الأريحيّة والاحترام من قبل الناس نابع من بواقي الشخصية السابقة القديمة أم من الشخصيّة الجديدة البرّاقة؟

للأسف بعد فترة من الزمن بدأت الأمور تتّضح أكثر فأكثر، حيث بدأت ألاحظ أنّ الناس يحترمونك بالفعل ويجاملونك ولكن من جهة أُخرى توقفوا عن الحذر في التعامل معك، وبدأت أحسُّ بنوع من الاستهتار والاستخفاف هل هذا لأنهم لا يخشون جانبك أكثر؟ بدأ الأمر أنني في كثير من الزيارات العمليّة كمسؤول مع المسؤولين الآخرين توقف الناس عن ملاحظتك، أصبحت شخصًا عاديًا، يعني مفروغ منه، فأنت تعمل وتقدّم وتبذل جهدًا وغيرك يتلّقى

المديح والاطراءات ويتلقّى الدعوات والاستقبالات أما أنت فأصبحت هامشيًا، فأنت مضمون وغير ضار. "

توقف صديقي عن الحديث، وأخذ جرعةً من الماء، نظرت إلى وجهه ورأيت أنّه كان متأثرًا جدًا فحثثته أن يستمر في كلامه، فتساءل قائلًا: "هل رخّصت تجارتي نتيجة كوني متواضعًا حتى بارت تجارتي؟ هل بالفعل أنّ الافراط في التواضع يجلب لك المذلّة؟ هل يُقاس التعامل معك بقدر المصلحة والحاجة إليك؟ يعني هل تنتهي صلاحيتك عندما تنتهي المصلحة منك؟

هذا الأمر يُقلقني وللتأكيد على ذلك أنني أجد ازديادًا ملحوظًا في طلب الصداقات على الفيسبوك، تزايدًا في طلبات أشخاص لا أعرفهم أو لم التقيهم أبدًا. ماذا يريدون منّي ولماذا يطلبون صداقتي؟ هل للمصلحة؟ هل أصبح الشخص يُقاس بمقدار الفائدة التي بإمكانه أن يزوّدها للآخرين؟"

رأيت أنّ صديقي قد أصبح متأثرًا جدًا وحزينًا فقررت أن أرطّب الجو وأبعث السرور في نفسه فقلت له حديثك يذكرّني بطرفةٍ كنت قد قرأتها سابقًا تقول:

"خرج المهدي يتصيَّد فغارَ به فرَسهُ حتى وقَع في خِباء اعرابي، فقال يا أعرابي هل من قِرى (ضيافة) فأخرج له قُرص شَعير فأكَله ثمُ أَخرج له فضله من لبن فسَقاه. ثُم أتاه بِنبيذ في رَكوَةٍ فَسقاه فلمّا شَرب قال أَتدري مَن أنا؟ قال لا، قال أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة. قال بارك الله لك في موضعك ثم سَقاه مرةً أخرى فشرب. فقال يا اعرابي أتدري من أنا؟ قال زعمت أنك من خدم أمير

المؤمنين الخاصة. قال لا أنا من قُوّاد أمير المؤمنين قال رحبت بلادك وطاب مرادك. ثم سقاه الثالثة فلما فَرِغ قال يا أعرابي أتدري من أنا؟ قال زعمت أنك من قُوّاد أمير المؤمنين قال لا ولكني أمير المؤمنين قال فأخذ الأعرابي الركوة فوكأها (أغلقها)، وقال إليك عني فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله. فضحك المهدي حتى غَشي عليه ثم أحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك والأَشراف فَطار قلب الأعرابي فقال له لا بأس عليك ولا خوف ثم أمر له بكسوة ومال جزيل".

بدا صديقي متأثرًا، وعابس الوجه كأنه لم يسمع طُرفتي ولم تلفت انتباهه واستمر في حديثة قائلًا: "إنّ القشّة التي قصمت ظهر البعير كانت في فترة شهر رمضان، حيث تُقيم المدارس والمؤسسات أُمسيات رمضانيّة وإفطارات وليالٍ للعاملين فيها أو ما يسمى شركاء، وجدت أنني قلّما أُدعى لهذه المناسبات رغم أنني قدمت الكثير لهذه المؤسسات، ووجدت أشخاصًا آخرين يتألقون بالصور على مواقع التواصل والابتسامة العريضة تعتلي وجوههم كأنهم حققوا الإنجازات الهائلة لهذه المؤسسات وهنا تبقى أنت حائرًا تسأل نفس السؤال هل:

"الّي برخص تجارته بتبور"

كل عام وأنتم بخير

13\05\2021

أ.أيمن جبارة